

وكان انعام الدرامى فى أخرياته ، وقد فرغ المعلمون
أو كادوا مما عليهم من فرائض العلم ، وتأنب للتلميذات
لواجهن استعداداً ليوم قريب ...

ورأت المدرسة أن تجرى على تقاليدها احتفالاً بانتهاء
عام ؛ على أنها رأت أن يكون فى حفلها هذه السنة شئاً جديداً ،
محاكاة لمدارس أخرى ، ومساهمة فى بعض أعمال البر ؛ فاعتزمت
أن يكون احتفالها فى مسرح كبير مشهور ، يُدعى إليه طائفة
من أهل البذل والمروف ، لتستعين المدرسة بما تجمع منهم على البر
بطائفة من الفقراء ...

هى سنة جديدة سنها بعض للقائمين على شئون التعليم
تفترت قاعدة ؛ فلم تتخلف نحن وقد سبقنا إلى هذه السنة
الجديدة مدارس ؟

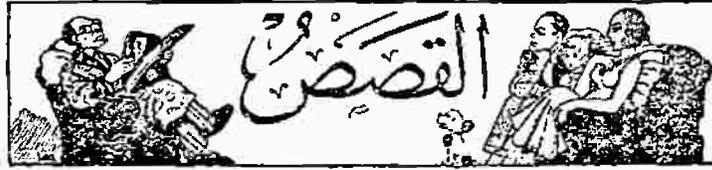
وأعدت المدرسة برنامجاً حافلاً ، فيه تمثيل ، ورقص ،
وموسيقى ؛ وما بدت أن تجتمع هذه الألوان الثلاثة فى كل حفل
مدرسى يراد منه أن يظل إيراداً يمين على بعض أعمال البر ...
وإلا فإذ اتفدت المدرسة من وسائل التلمية نمنا لما تطلب من أهل
البذل والمروف ا

وقالت معلمة لأخرى : ينبغي أن تكون حفلتنا ...
فقاطعتها للثانية : نعم ، وستكون أنظم ما أقيم من حفلات
المدارس فى هذا الموسم ... ا

واختيرت الرواية ، وأستوثر المسرح الكبير ، ودعى فنان
كبير من أهل الكفاية ... ليدرّب التلميذات على اصطناع
شخصيات الرواية ، كل واحدة بدورها ، راقصة أو ممثلة ا
وظاف المدرّب بالتلميذات فى صفوفهن يختار منهن ذوات
الوجوه والأجسام ... الفنية ا
واختار « قدرية » لدور ذي خطر ...

وتأبّت الفتاة بما فى طبيعتها من الحياء وما فى دمها من إرث
أجدادها ؛ وهب البنات أن تأبى قدرية وإن كل واحدة منهن
لتنمى ؛ واستمعت قدرية إلى أحاديث البنات صامتة ، ثم ... ثم
قبلت شقراً مزهوة ، وغلبتها غريزة الأنثى للثبور على ما فى دمها
من إرث الآباء والأجداد ا

ووقف المدرّب يلقنها ويستمع إليها ، ووقفت هى مصغية
تستمع إليه وتحاكيه ، تجهر بصوتها حيناً وحيناً تخافت به ؛



الدرس الأول

للأستاذ محمد سعيد العريان

—»»»—

« هل كانت « قدرية » فى أوليتها تتوقع هذه للغاية التى
انتهى إليها أمرها ؟ »

هكذا سألنى صديق وهو يحدثنى حديثها :

كانت تجلس فى الصف الأخير من حجرة الدراسة ، فقد
كانت أطول قامة وأبعد نظراً ؛ فاشتق عليها ولا يعنىها أن تجلس
فى الصف الأول أو فى الصف الأخير ؛ على أنها كانت أسبق
التلميذات جواباً عند الاختبار ، وأكثرهن عناية بالمعمل المدرسى ؛
فلا جرم كانت بذلك أدنى منزلة إلى قلوب معلمها ومعلماتها .
وكانت على إرث من الأدب والفضيلة ، يبدو فى طرف غضيض ،
وصوت خفيض ، ولسان عذب التحية عف الخصاص ؛ وكانت
إلى كل ذلك مليحة رشيقة ، مقبلة ومُدبرة ا ... وإنى لأعجب
لنفسى كيف لم أتبين ما فيها من رشاقة وخفة إلا فى تلك الليلة
التى كانت ... حين بدأت حوادث هذه القصة ؟ ... على أن المعلم
فى مدارس البنات ، قلما يُبنى بالنظر إلى وجوه تلميذاته ، ولمه
لو سُئل الرأى فى تفضيل واحدة على واحدة من بناته فى هذا
الباب ، لأخطأ الرأى والنظر ، ولكانت آدمُ السميات هى عنده
الجميلة التى لا تباريها واحدة ولا تقاربها ؛ فإن طول المشرة ودوام
المخالطة خليق بأن يلوّن رأيه بلون غير اللون الذى ينظر به كل
رجل إلى كل امرأة ؛ ومن ذلك لم يهجنس فى نفسى يوماً أن فلانة
من تلميذاتى أجملُ أو أدمُ من فلانة ؛ وكذلك لم أكتشف
ما كان فى « قدرية » من جمال وفتنة إلا فى تلك الليلة ، وإنها
لتلميذتى منذ ثلاث سنين ا

كان ذلك فى يوم من أيام الربيع ، وقد تبرّجت الدنيا
بزينتها وأخذت زخرفها ، ونصت الكائنات عن سر الإبداع
للمبقرى الذى أودعه فيها للصانع الأعظم ا

واستعظمت* ثم دلت*، ووعدت* ثم تأملت*، ومنمت* ثم نزلت*،
وقالت عيناها... وقالت عيون الناس...

وكأنى لم أرقدرية قبل تلك الليلة؛ ... لقد بدا لي من جلالها
وخفتها ما لم يكن لي به عهد من قبل؛ أهذه هي...؟

ولما أسدلت الستارة في الخاتمة، كان تحت قدميها أكداص
من الزهر؛ وفي أذنيها أنغام من هتاف الإعجاب؛ ولكن قلبها
كان أحفل بمعانيه...!

وحين لقيها أبوها بمد، كانت في عينيه دموع، وطبع على
جبينها قبلة... وأقلتها للسيارة بين أمها وأبيها إلى البيت وهي
سامتة، لأن معاني ذات خطر كانت تُطيف برأسها...

ونامت تلك الليلة بين هتاف وتصفيق وأكداص من الزهر؛
لقد كانت عيناها مغمضتين ولكن قلبها يقظان؛ وتمثل لها
في أحلامها كل ما رأت وسمعت وشمرت، وراحت أحلامها
تنسج لها أمانيها... وتلقّت الدرس الأول في تلك الليلة،
فنسيت به كل ما تعلمت من دروس!

لقد ذاقتم قدرية من اللذة الفنية ليلتئذ ما لم تذق طوال
سنبها التي عاشت، فشاقها أن تستزيد...

ولما عادت إلى المدرسة بمد يومين، وسمت نداء معلمها
ومعلماتها، أجد لها ما ضمت معاني أحست في أحقادها سداها
ووجدت فيها غذاءً لأمانها...

... وتناولت (المجلة) التي تمودت أن تقرأها في كل
أسبوع، فراحت تعبر صفحاتها معجزة حتى انتهت إلى صفحة
(الفن) فتلبت، وأخذت تنظر إلى صور الراقصات ونجوم
المسرح معجبة متمنية... وفي أذنها صدى بعيد من هتاف
النظارة وتصفيق المتفرجين...!

ولما جان عيد مولدها وأرادت أن تتصور - على طاعتها
في كل سنة - لم يحل لها إلا وضع واحد يبدو فيه صورها،
فلبست ثوبها الذي كانت ترتديه ليلتئذ ووقفت بعض مواضعها
واستحضرت صورة ما كان... فانطبعت في الورقة صورة
من مشاهد ذلك الماضي، وتمثلت في نظرة عينها تمام صورته!
ووقفت ذات مساء على باب مسرح كبير من مسارح اللو
تجبل عينها في إطار كبير يضم شتيتاً من صور الراقصات وربات

وعرفت من بخارج الصوت ما لم تكن تعرف، ولانت أعطافها
بمد خشونة ويسر، وأحسنت أن تدور على عقبها، ثم تنثني
وتنهض، وأجادت تمثيل اللفتة المنكبة، والنظرة العابرة، والرؤوة
الأسرة، ثم تبكي وتضحك في وقت مما... ..

وقال المدرب للفنان: يا لها من فتاة! إنها لفنانة موهوبة!
وأطبقت الفتاة جفونها في حياء وهي تشكر له، فبدت في كلماتها
وحركتها أريج فناً مما ظن مدرّبها...!

ولم يمنع أبوها وأمها أن تكون ابنتهما راقصة ممثلة ساعة
في ليلة من ليالي البر؛ وأين يبدو لها وجه الاعتراض والمدرسة
هي التي اختارتها لذلك؛ وإن المدرسة لأحرف منهما بما ينبغي
وما لا ينبغي؛ وإن عليها وحدها أن تختار لتلميذاتها من وسائل
الرياضة والتثقيف ما يؤهلهن للحياة...!

وجاءت الليلة الموعودة بمد تدريب طويل وإعداد شاق...
وكان على أبواب المسرح الكبير معلمون ومعلمات لاستقبال
المدعوين، وغص البهو والشرفات بالآباء والأمهات، والأصدقاء
والصديقات، و... والمرين والمريبات...

وراحت طائفة من التلميذات تجوس خلال الصفوف في ثياب
بديمة ومظهر فائق، ييمن الزهر والحلوى مما صنعت أيديهن من
قبل استمداداً لهذا اليوم ومساهمة في أعمال اللبر...

... وكانت «قدرية» خلف الستارة بين أيدي المواضع
يبينها للظهور، وأمامها حراة كبيرة تريها من نفسها ما لم تكن
تري أو تعرف، وابتسمت ابتسامة الإعجاب والرضا حين رأت
وعرفت...!

وخرجت إلى المسرح مجلوة ملونة كما لم تبد في يوم من أيامها،
وانسكبت عليها الأشعة من أربعة جوانب المسرح تشب لونها
وتريدها ملاحه وفتنة، ووقفت متأهبة...

ورن الجرس، ثم ارتفعت الستارة، وضع المسرح بالتصفيق
فأنحنت في رشاقة وخفة وهي تكشف عن ساق ممثلة مصقولة
كأنما يجرى فيها شعاع الشمس، ونثرت ابتساماتها يمنة ويسرة
ترد تحية بتحية...

ولم يكف التصفيق حتى ارتفع صوتها يعني... واستدار بها
البنات يرقصن ويثنين...

وغنت ورقصت، وضحكت وبكت، وتأمّرت ثم دلت،

ويدت لي في مثل هيئتها التي رأيتُ أول مرة على المسرح
الكبير في القاهرة منذ سنوات ...

ثوب مفروش ، كأنما اجتمعت أجزاء من أوراق الزهر ،
يكشف عن ساق ممتلئة مصقولة ، كأنما يجري فيها شعاع الشمس ،
وانحنت في رشافة وخفة ، وهي تنثر ابتساماتها يمنة ويسرة ، ترد
تحية بتحية ، والمسرح يضح بالتصفيق والهتاف باسمها الجديد
الذي سمته لأول مرة في تلك الليلة ...

وغنت ورقصت ، وضحكت وبكت ، وتأسرت ثم ذلك ،
واستعطفت ثم دلت ، ووعدت ثم تأبت ، ومنعت ثم تولت ...
وقالت عينها ... وقالت عيون الناس ... وقالت لي نفسي ...

وانتشرت أكداس الزهر على قدميها ، وأسدت الستارة ...
ليت شمري ، هل كانت قدرية في أوليتها تتوقع هذه للغاية
التي انتهى إليها أمرها ؟

وهل كانت خواطرها تحيّل لها هذا المسير الذي بلفته ، يوم
كانت تجلس مجلسها من الصف الأخير في حجرة الدراسة ؟
وهل ... وهل عرف من عرف : كم بين الدرس الأول
والدرس الأخير ... وأين ما بدأ مما انتهى ... ؟

وانفض السامر ، ونهياً أهلي للانصراف وما زلت في مجلسي
أفكر ، ثم نهضت ؛ فإني لا ألتبس طريق في الزحام على الباب إذ حانت
مني التفاتة فرأيت ؛ فتنحيت عن طريق ، وقلت للتي يجاني :
تفضلني ! وكانت سيدة ورجلها وبينهما طفل ؛ أما السيدة فأعرفها ؛
فأتحفي على " ملامح تلميذة من تلميذاتي مهما باعد بيننا الزمان ؛ وأما
الرجل فزوجها ؛ هكذا يمر كل من يراه ويراه ؛ وأما الطفل ...
... هذه فتاة أخرى من تلميذاتي تبرز ليني " فجأة بمد
غياب سنين ... هذه واحدة و (تلك) واحدة ...

ليت (تلك) التي توارت خلف الستارة منذ قريب قد رأت
ما رأيتُ لملها تعلم ماذا باعت وما اشترت !
وشيمت (الأسرة السعيدة) بعيني ثم اردت نظري إلى الورا
لا شيع الأخرى ...

وكأنما اجتمعت لي هاتان للصورتان في زمان ومكان ليشتاني
أمرها من بعد ما يشلني ، فلا أزال أسأل نفسي كلما حضرني
الذكرى : أيهما خير ... ؟
محمد مهدي الصريانه

الفن ، وظالت وقتها ؛ ثم انصرفت ؛ وفي الليلة التالية كانت
جالسة في الصف الأول من بهو المسرح تشهد التمثيل وحدها ،
ليس معها أحد من ذويها ؛ واستطاعت في ختام الليلة أن يكون
لها رأي فيما شهدت من ألوان الفن وفي عيوب الممثلين وغلظ
الراقصات ... !

وفي الصباح كانت جالسة إلى بعض زميلاتها في حوش
الدرسة يتحدثن حديثاً طويلاً عن عيوب الفن المصري في الرقص
والتمثيل والفناء ، وتشخص العلة ونصف الدواء ؛ وأمن
سديقاتها على ما قالت ؛ فإتشك واحدة منهن في أن من حق
قدرية أن يكون لها رأي في الرقص والتمثيل والفناء ؛ وإنهن
ليضمن من حديثها كل يوم ما يشهد بكفائتها وسمة معارفها
في تلك الفنون ... !

وتلقت قدرية بعد الدرس الأول دروساً كثيرة ، في المسرح
والسبا ، والصحف ، والكتب ؛ وما نسيت مع كل أولئك شيئاً
مما رأت في تلك الليلة التي كانت ... لقد استقرت في أعماقها
أصداء الهتاف والتصفيق الذي سمعت ليلئذ ... ورنين كلمات الإعجاب
والرضا التي وعثها أذناها ، وصورتها بين الأشعة الملونة تنسكب
عليها من جوانب المسرح وتحت قدميها أكداس الزهر ...
وبقي كل أولئك في نفسها مشهداً حياً كأنها ما تزال بين أشمته
وألوانه ، فإنها لتجد لذته لذة فنية تحب إليها حياتها وتجدها لها
في كل يوم أمانها ...

وانتهى عهدي بقدرية وانتهى عهدا بي ؛ فقد أتمت دروسها
بالدرسة ومضت لشأنها ؛ وتصرفت سنون ... ونسيت أمرها
وما كان ...

... وفي ليلة من ليالي الصيف الماضي ، دعوت أهلي إلى سهرة
في بعض ملاهي الإسكندرية ؛ قصد التسلية والرياضة . ووقفتُ
يباب الملهى المائم بين الأمواج المصطنعة ، أقرأ البرنامج المنشور
على الباب وأشاهد الصور ؛ ورأيت صورة ، فهجس في نفسي
هاجس لم يلبث أن ثلاثي ...

ودخلنا ، واتخذنا مقاعدنا على مقربة من المسرح ... ومضت
لحظات ، ثم رن الجرس ورقمت الستارة ؛ وتتابعت المشاهد فنوناً
توقظ للفكر وتجلو صدأ للنفس وتُسرى عن الهموم ؛ وبقية برز
أمامي مشهد رائع ... يا لله ... ! من كان يظن ... ؟ هذه تلميذتي
قدرية ... !